ويتماهى الراوي بالطبقة التي يكتب عنها ، يتماهى ويخلق فضاءا روائيا محكوما بفكرتي الجمال والبطولة يتسامى فيه مع طبقته ويحققان رغبات مستحيلة التحقيق . يكتب الراوي حلمه أو يحلم في كتابته فيخلق « وليد مسعود » ، ثم يتمادى الحلم فيولد أحلامه الأخرى ، يأخذ الحلم شكل الواقع وينتج أحلامه الجديدة فيخلق « مروان وليد مسعود » . ومضاعفة الحلم هي كتابة فوق الكتابة أي طمس للكتابة الأولى وإضاعة للحلم الأول ، لذلك تحقق الرغبة الفنية ذاتها في شخص « وليد » وتفقد ذاتها في شخص ولده .

□

يطرح علينا ، أخيرا ، عالم جبرا الروائي ، سؤاله الضروري : أين تكمن الحدود والفواصل بين الخيال الروائي والوهم الروائي ؟. لا يتحدد الجواب هنا في فضاء جبرا الروائي بل في الواقع الذي يقرأ هذا الفضاء ، فجبرا في كتابته لا يكتب وهما بل يرسم عالما روائيا ذا قيمة جمالية ومعرفية . يصف طبقة تعشق الوطن وفقا لمنطقها وثقافتها ووضعها الاجتماعي ، وفي هذا الرسم والوصف يطلق جبرا خياله الروائي وينتج جسما فنيا متماسكا ومتميزا . وعندما يقترب هذا الخيال من الواقع أو يحاول الواقع قراءة ذاته فيه يتحول الخيال عندئذ إلى وهم . فالوهمُ لا يقوم في الخيال الروائي من حيث كل من العلاقات الفنية بل يقوم في شكل العلاقة التي ترتبط هذا الخيال بالواقع الفلسطيني العام،و يتضاعف الوهم عندما يتماثل الراوي بشخصياته ويرسمها بشكل إيجابي يقوي القارىء بالتماثل معها أيضا ، والتعامل معها على أنها شخصيات واقعية . ورغم الغواية يقوم القارىء بقراءة النص والواقع من جديد ويكتشف الفراق بينهما .

ينتج الفضاء الروائي عند جبرا بكل مركباته الأيدولوجية وتحولاته الفنية شخصيات ثنائية الدلالة . دلالة بالنسبة لجبرا لأنه يتماثل بشخصياته،ودلالة،بالنسبة للقارىء والواقع . دلالتان لا تتواءمان ، لأن احداهما تنزع إلى الاقتراب من الواقع دون أن تصل إليه،تصل إلى فلسطيني الوهم دون أن تصل إلى الفلسطيني أبدا .